Received: 11/8/2021 Accepted: 6/9/2021 Published: 2021

المتن الثقافي والحيل النسقية
(المضمر النسقي من القبيح إلى الجمالي)

ا.م.د. رضاب حافظ حميد كايد
وزارة التربية – التعليم المهني – الرصافة الثانية
r.novel34@yahoo.com

مستخلص البحث:

في خضم المنظومة النسقية للنصّ تؤدي الوظيفة الثقافية بعداً شكلياً بإعادة تلقي المفهوم الجمالي وبرمجة آلية تلك الذائقة ومن هنا فقد اشتغل البحث على المفهوم التاريخي للأدب الحامل لجماليات الخطاب وفكرة التراتب الاجتماعي وأثره في خلق محميات ثقافية على عدّ الأدب يجمع بين بنية المشاعر والإحساس وبين الشكل الجمالي للغة وما هو متجذر في الوعي الأدبي الثقافي من حيث الأنساق في منظومة الأشكال الجمالية وإعطاء الجمالي قيمة تتعالى على العقلي والفكري إضافة إلى غياب نقد الذات والآخر فلا بد من دراسة تاريخية جديدة تعي ما تضمره الأنساق من ثقافة مكممة وجنوسة مقتولة في دهاليز النسق الجمالي, واشتغلنا على قراءة النص الأدبي قراءة ثقافية تؤدي إلى التحليل الذي يتجاوز ما وراء النص الأدبي من ناحية وبين القيم والمؤسسات والممارسات الثقافية من ناحية أخرى, كما أشرنا إلى الناقد الغذامي الذي يعد أول من حدد مصطلح النقد الثقافي وعربه وطبقه على الخطاب الأدبي العربي إذ قارب بين نظرية النقد الثقافي ومفهوم العلل وبهذا نتوصل إلى أن النقد الثقافي لا يبقى مشروطاً بالجمالية وحدها بل بنسق مضمر يستعين بوسائل الجمالية لتمرير عيوبه وايدلوجيته تحت الغطاء الجمالي لذا فإننا في الوقت نفسه نكشف عن مستويات الجمال الصوري في خطاب ما نعمد إلى إبراز قبحيات هذهِ الجماليات من ناحية أخرى.

الكلمات المفتاحية: المتن الثقافي , الحيل النسقية , الجماليات.

الشاخص الثقافي وجماليات النص:

من الممكن القول إن فهم عنوان هذه الدراسة قد يعكس تصوراً وضعياً تجريبياً لقراءة المتن من خلال ربط المسببات بالأسباب في إطار آلي يستجمع مفهوم الشاخص الثقافي مع الاشتغالات التي تُبنى عليها جماليات النص الأدبي. وبذلك انطلق الحديث عن هذهِ البُنية المركبة عبر تجزئة شقي العنوان (الشاخص الثقافي وجماليات النص) ثم مادة جمع هذهِ الثنائية للوصول إلى أثر إحداهما في الآخر وستستقرئ الدراسة بعد الوقوف على محورين أساسيين هما:-

1-مفهوم التاريخ الأدبي الحامل لجماليات الخطاب.

2-فكرة التراتب الإجتماعي وأثره في خلق معميات ثقافية.

وفي كلا الأمرين يستند المحوران إلى تلك الدوال التي تترسب في اللامعقول رغبةً في تحول الفكر من البحث عن الحقيقة إلى البحث عن معنى أي نظام التعبير والإفصاح للجمع بين المعرفة والغاية من خلال الوعي بكل ما هو نسقي تتضمنهُ الخطابات. من المعروف إن الأدب يُعد أحد أهم عناصر النظام الإجتماعي الذي يتواصل بهِ المجتمع ويستمر وعلى الرغم من إختلاف الأدب بأنواعهِ وأجناسه, إلا أنه يمثل موقعاً متميزاً في القوى الإجتماعية والثقافية, فهو يجمع بين بُنية المشاعر

والأحساس وبين التشكل الجمالي للغة وهذا التشكل الجمالي متأتٍ من هيمنة بُنى المشاعر والأحاسيس التي تُعد أعرافاً ثقافيةً ومؤسسات فكرية مثلها مثل الفن والأدب.(1)

وعلى هذا فإن فهم أي خطاب أدبي يُعد دراسة معمقة لفهم ودراسة فكر ثقافي.. وبالتالي لا يتم تقييم الأدب عبر نقاء نصيّ أو بمقدار ما يحققه من متعة ولا بما يضطلع الكشف بهِ عن الذات المبدعة, كما لا ينظر إلى جماليات تركيبه, وإنما بما يحققه من فاعلية للواقع الإجتماعي وهذا ما هو متجذر في الوعي الأدبي الثقافي إذ التقولب في منظومة الأشكال الجمالية.

وهذا الأمر ينطوي على مكانة وتقييم المدونة الإبداعية السائدة في المجتمعات مما ساعد في ظهور وتجذر البداهات والمُسلمات مشكلة قوة غامسة زادت من عقم الخطابات بتلك الآلهة والطواطم من الأشكال المفتتنة ظاهرياً. فباتَ الناقد والمبدع يستقرئ وينتج في ضوء مقررات العرب وتصنيفاتهم ضمن ما هو متجذر في تلك المنظومة لأنهُ يفي بحاجات وجودهم في لحظتهم التاريخية التي امعنت في المضي. وجاء هذا في فلسفة (لالاند) في أن "البداهة لا تحتاج إلى برهنة إنها مبدأ بالغ البيان حيث لا يحتاج إلى نظر واعتبار. أنها كل "قضية لا تستنتج من أُخرى بل وضع بقرار صادر عن العقل في بداية الاستنتاج"(2) وهذا النسق ليس جديداً علينا بل هو متأتٍ من تراكمات مختلفة اسماها الغذاميّ "الجبروت أو العنف الرمزي" الذي يقوم بدور المحرك الفاعل في الذهن الثقافي للأمة, وهو المكون الخفي لذائقتها ولأنماط تفكيرها أو صياغة أنساقها المهيمنة.(3)

أي أراد القول أن الظاهرة النصية هي النسق على وفق القراءة النصية التي يكون الإعتماد فيها على الشكل لا المضمون فبدأت تكرس فكرة الأصيل والمقبول والمباح إنطلاقاً من الوحدات اللغوية وصولاً إلى القوالب الشكلية الجمالية للنصوص وتغييب ما يراد له أن يُغيب بسبب القيم أو القوانين أو أنماط التربية.. وهذا ما اسماه بول دي مان: "خطأ نسيج الأبنية الإبداعية عندما يُحتمى بهِ الأدب من نفسه عندما لا يلجأ إلى الواقع فلن يكتفي بمعرفة نفسه كخيال مجرد وخطاب لغوي .. أي أنه ليس أكثر من مجاز أو إستعارة نسيت جذورها البلاغية وصارت تتنكر بقناع الحقيقة.

بدأ الخطاب النقدي يتناول الغموض وتعدد المعاني في الشعر بعد أن كان ينظر إليه على أنه وحدة العالم الطبيعي وتماسكه, بسبب اللغة الشعرية الغامضة وتناقضها مع الكلية الشبيهة بالموضوع أشبه بما تكون بلاغة عمى عندما يُعرف الطبيعة البلاغية للغة ورغم هذا تعمل على تمويه الحقيقة فهذا الجهاز أو المنظومة البلاغية لها اسلافها الكثيرون المتزمتون بإزدواجية اللغة وما يمكن أن تضمرهُ من حيل عند إنكبابها على لغة الأدب.(4) الأمر نفسه الذي اسماه د. محمد لطفي اليوسفي بتعبير النصوص الإنشقاقية في دلالة على الخطابات والأفكار التي تحفل بها هوامش الثقافة العربية, أي تلك التصورات والخطابات التي عالجتها كتب الأَخبار أو النصوص السردية أو الصوفية أو حتى الفلسفية والتي حكمت عليها القيم المهيمنة بالشطّب الرمزي أو المادي.(5) لذلك نجد الدكتور الغذّامي يُحمل الشعر العربي مسؤولية الأنساق الثقافية التي ظهرت فالنسق أول ما ظهر في الشعر ثم تسلل إلى مناحي الحياة الثقافية المختلفة كافة. إذ النسق الواحد هو المهيمن والمسيطر على غيره, وأهم مسببات ظهور النسق هو تغييب العقل وتغليب الوجدان وهذهِ أخطر الحيل البلاغية والشعرية وجرى عبرها تمرير أشياء كثيرة لمصلحة التفكير اللاعقلاني في ثقافتنا, وفي تغليب الجانب الانفعالي, فضلاً عن غياب نقد الذات والآخر تحت مقولة:- (أعذب الشعر أكذبه) التي نادت بالعزل بين اللغة والتفكير مع اعطاء الجمالي قيمة تتعالى على العقلي والفكري ليس في الشعر فقط وإنما ذلك يصبغ الشخصية الثقافية سلامة بصفة الشاعرية ولغتها.

فضلاً عن تسويغ كل قول شعري وكل شخصية شعرية إلى أن تم غرس أنماط من القيم ظلت من غير نقد مما مُنحتْ ديمومة وهيمنة. ولو تمعنا في ديوان العرب على وفق مفهوم الانساق المضمرة لوجدنا أن الشعر هو المخزن الخطر لهذهِ الانساق وهو الجرثومة المستترة بالجماليات والتي ظلت تفعل وتعزز نماذجها جيلاً بعد جيل ليس في الخطاب الشعري بل في كل التجليات الثقافية.(6)

أي أن الشعر هو العلامة الكاشفة للنسق أو الحامل لها فالشعر يُنتج الأنساق لا لكونهِ سبباً أو نتيجة وإنما جسد حامل لهذا الفيروس فهو ينشره ويحركه فيكون مجاله وكونه, ومن ثم يخلق عملاً ثقافياً في كل الأوساط. فالشاعر يفهم بتوازن الأنساق الثقافية ونقلها من جيل إلى آخر, أي أن لدينا مخزوناً نسقياً لا بد من الكشف عن خباياه(7) الثقافية, فالثقافة هي أحد عناصر الوعي الجمعي الذي يؤسس الطبقية المهيمنة وإكتسابها يُنمي حظوظاً مقبولة لدى أي فئة. فالشاعر لكونه يتمثل لهذهِ الفئة فعليه الإلتزام بتفكيرها وبمواقفها الأيديولجية وهنا تدعو الحاجة إلى القضاء على العمل الثقافي الذي تستره الأنساق عبر إفراغ الأنساق الثقافية من مضامينها وتدميرها وغزوها بمضامين إنتجتها ظروف تاريخية مختلفة. فلا بد من تاريخانية جديدة تعي ما تضمره الانساق من ثقافة مكممة وجنوسة مقتولة في دهاليز النسق الجمالي. وفي قراءة مختلفة لنظرية العرب القدامى في الشعر والشعرية وأدبية النص والكشف عما أُستُبعد وأُهمل وهذا ما نجده في كثير من النصوص المستبعدة التي تضم الخطابات الصوفية والسيّرية والإباحية والحكايات الشعبية ومناقب الأولياء لأنها تخلق تعارضاً في أنماط الخطاب الجمالي والأخلاقي والديني. فلا بد من تاريخ جديد ينتزع عتمة العمى ليكرس وعياً متعدداً بديلاً عن العموميات الثقافية ليُنهي وصمْ الثقافة من قبل سلطة الخطاب الجمالي.

وفي إنعطافة ليست ببعيدة أُشير بان لا وجودة لهوة تفصل التاريخ عن الإجتماع وهذا بديهي على عدّ ان المجتمع هو نسق من العلاقات المتداخلة التي تربط الأفراد كما لا توجد ثقافة بدون مجتمع ولا مجتمع بدون ثقافة. وبما أن الثقافة تشتمل قيماً يتمسك بها أفراد هذا المجتمع فإن هناك معاييراً وأنماطاً يتبعوها ويتعايشون على وفقها فتظهر على هذا الأساس عدد من التشكيلات الثقافية ينخرط وراءها عدد من الجماعات التي تحددهم وتمايزهم فئة معينة فتتولد لدينا ثقافة مركزية وثقافات مغايرة أو معارضة, تحاول الأولى تثقيف الآخر على وفق معاييرها الفردية بينما تحاول الأخرى رفض القيم والمعايير السائدة عليها وبالتالي يكون لدينا شخصية مهمشة لا إرادياً تنتج ثقافة مُسايرة لثقافة مركزية أقوى منها. فتسود أطوارٌ من التموضع والإغتراب تتواجد في المعرفة والأخلاق والدين والفن والحياة والتاريخ ... الخ. ففي الوقت الذي يُعبّر فيه التموضع عن أشد حالات الفرد قُرباً ذاتوياً من نفسهِ يُعد كذلك فاقداً لحرية الروح بما تعبر عنه من أحداث وأحوال إذ يستبعد التموضع نفسه ويكوّن مملكته الحتمية وتسقط الذات بمجال التزمت الذي تقوم بهِ.(8) فينتج عن هذا تراتباً إجتماعياً يوصف أوضاع اللامساواة في المجتمعات على أساس المكانة والحضوة والتملك والسلطة. تُشكل نمطاً معرفياً يترافق مع المعيش اليومي خاصة بعد أن يتعامل مع الثقافة المهيمنة وهذا يخلق عمى ثقافياً لا يتكفّل بأحوال البنى الإجتماعية وقضاياه التراتبية وهذا يقودنا إلى العمى الجنوسي الذي يُقصي المرأة ويتجاهلها من البنية الإجتماعية, ونجد أثره في وسائل الثقافة التكنولوجية في الاعلام والتلفزيون والأزياء إذ بدأت ثقافة الصورة تمارس هيمنتها في تكريس هذا الإقصاء الأنثوي والتعامل معه بتجرد وسطحية.

وعلى هذا راهن الكثير من الباحثين ومنهم (بورديو) على تفكيك العلاقة العمودية المتعالية بين من هم في قمة الهرم الإجتماعي وبين من هم في قاعدته لبناء علاقة أفقية قائمة على المكانية الإجتماعية والتعالق الوظيفي من أجل ادماج المستبعدين والمعطلين والمهمشين, للبحث عن عالم إنساني أكثر عدالة وحرية يختفي فيه كل أشكال الإستغلال الفكري والمعميات الثقافية لصياغة حالة ثقافية

هابيتوسية إن صح القول, تهدف إلى العملّ الإجتماعي المترابط ويهدف إلى المعرفة البشرية المتنورة من غير إمتلاك عابر للوعي والتصرف فيهِ ضمن الشروط المادية لنصل عبر ذلك إلى وعي بالذات لا ينادي بعبارة (المعنى في قلب الشاعر) ولا يردد مقولة احمد شوقي: (أنتم الناس إيها الشعراء).

وذلك لا يتم إلا عبر الجسور والمساعي التي يقدمها النقد الثقافي الذي يهدف إلى اقصاء ما يجري في الحياة اليومية من سلوكيات مضمرة تجعلنا كلما رأينا منتجاً أو خطاباً ثقافياً يحضى بقبول جماهيري نعلم من ورائه خطران لفعل نسقي مضمر يداعب ما هو مكبوت ومسكوت عنه ومتخفٍ وراءه البلاغي والجمالي نستقبلهُ لتوافق السري وتواطئه مع نسق قديم منغرس فينا.

وبذلك فالعمى الثقافي في حالة مجتمعية سلوكية لا لكونهِ شيئاً طارئاً وإنما جرثومة قديمة تنشط متى ما توافرت لها الطقس الملائم.

المتن الثقافي يؤدي إلى حيل نسقية:

الثقافة Culture" هي كل ما فيه استنارة للذهن وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد أو في المجتمع وتشتمل على المعارف والمعتقدات والفن والأخلاق وجميع القدرات التي يسهم بها الفرد في مجتمعه ولها طرق ونماذج عملية وفكرية وروحية, ولكل جيل ثقافته التي إستمدها من الماضي وأضاف إليها ما أضاف في الحاضر وهى عنوان المجتمعات.(9) تعددت مفاهيم الثقافة, بين العلماء؛ كل حسب رؤيته لها عبر الفكر الذي يبحث فيه, فمنهم من عرفها بقوله : ((هي ذلك الكل المتكامل الذي يشمل المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاقيات والقوانين والأعراف و القدرات الأخرى , وعادات الإنسان المكتسبة , بوصفه عضواً في المجتمع))(10) , وقد عرفت أيضاً بأنها: ((آليات الهيمنة من خطط وقوانين وتعليمات ... ومهمتها هي تحكم بالسلوك))(11) , والثقافة في نهاية الأمر مكتسبة ولهذا فهي لا تنشأ عن الوراثة البيولوجية ومع أنها مكتسبة فإن أصلها وطابعها غير واعيين إلى حد كبير. (12) إن ثقافة أي مجتمع من المجتمعات هي ثمرة كل نشاط إنساني محلي نابع من هذا المجتمع ومعبر عنه ومواصل لتقاليده وأعرافه في هذا الميدان أو ذاك, فالثقافة محلية تشكل إسلوب حياة أي مجتمع من المجتمعات وهي - إذن - تختلف من مجتمع إلى آخر(13). فهي النظام الدال الذي يتواصل النظام الإجتماعي عبره ويتعايش ويستكشف طرائقه وأساليب حياته, والأدب أحد أهم عناصر هذا النظام الدال الذى يتواصل عبره المجتمع ويستمر, ولا شك أن تلك النصوص التي ندعوها "الأدب" على إختلاف أنواعها وأجناسها تحتل موقعاً متميزاً ومؤثراً تكون فيه أهم القوى الإجتماعية والثقافية مجتمعة ومتفاعلة مع بعضها البعض(14), فالأدب على عدّه شكلاً من أشكال التصوير ولوناً من ألوان التمثيل إنما يعكس القوانين والأعراف الثقافية التي تنظم الأساليب التي يتم بها إدراك الكون وتقوم عليها ممارسة الحياة. ذهب فان ديك إلى أن دراسة النص الأدبي بوصفه ظاهرة ثقافية تعدُّ تتويجاً لدراسات سياقية تبتدأ بالنص التداولي فالسياقي, فالمعرفي, ثم السياق الإجتماعي والنفسي؛ وأخيراً السياق الإجتماعي الثقافي وربط كل دراسة سياقية بهدف له علاقة بالنص الأدبي تبدأ بالنص بوصفه فعلا لغوياً ثم بعملية فهمه وتذوقه وأخيراً تفاعلاته والمؤسسة الإجتماعية(15).

وعن طريق العلاقة الوثيقة والتشابك المستمر بين (الثقافة) و(الأدب) و(النقد) يقوم النقد الثقافي ليقدم الكثير عبر تحليله للنصوص الأدبية؛ لأن تلك النصوص ثقافية تدل على العالم من ورائها وتشير إليه, وثقافية – أيضاً- بفضل القيم الإجتماعية والمضامين الإنسانية التي تنجح في أن تتمثلها وتتبناها, وحين يمتزج كل من : الأدب بوصفه (حدثاً لغوياً وخطاباً ثقافياً) بالثقافة بوصفها (ممارسة إنسانية وتفكيراً بشرياً) وبالنقد بوصفه (نشاطاً اجتماعياً ومؤسسة عقلية واعية) , تكون نتيجة هذا الإمتزاج قيام نقد ثقافي يمارس دوره في تحليل ودراسة كل ما تنتجه الثقافة بمفهومها الواسع المرّكب(16).

إن قراءة النص الأدبي قراءة ثقافية, يؤدي إلى نوع من التحليل الثقافي أكثر شمولاً وأعم فائدة للعمل الأدبي ذاته ؛ لأنه يتجاوز ما وراء حدود النص الأدبي كي يؤسس روابط , ويقيم علاقات بين النص الأدبي من ناحية , وبين القيم والمؤسسات والممارسات الثقافية من ناحية أخرى , فلا وجود لنص أدبي مبتور عن محيطه أو منفلت من خيوطه المحركة لنسيجه اللغوي والفني والإنساني والتي ينسجها المجتمع لتكون مواد ممكنة لحياكة النص وتشكيله وبالتالي فأصحاب الصنعة النقدية مدينون باستنطاق ذلك المحيط وإخراجه من خلف السطور بعيداً عن الصورة التي فرضتها المدرسة البنيوية على العملية النقدية نحو قرن كامل منذ "دي سوسير" ومقولاته . تلك الأطروحات المقننة للظواهر النصية داخل إطارها اللغوي البحت, والتي ظلّت تؤدي مهمة الصبّ في القوالب الجاهزة مما حدّ من حركة النص وبالتالي فاعلية الثقافة المبثوثة فيه, ظل الأمر كذلك حتى طرأ على الصورة البنيوية تعديل مهم تمثل فيما طرحه "لوسيان جولدمان" تحت مسمّى" البنيوية التكوينية" أو "البنيوية التوليدية" التي تتعامل مع النص الأدبي بوصفه بنية لغوية تعكس بنية إجتماعية مما جعلها الصورة البنيوية الأقرب إلى محاكاة الواقع الإجتماعي وملامسته؛ لكنها تظل صورة غير متقبلة لمرحلة ما بعد البنيوية لعجزها عن تشكيل الأنساق الثقافية المطمورة في عمق النص والتي كانت حاجة ملحة تتجاوب مع التغيرات الطارئة على واقع الثقافة العربية والتي تتطلب تغييراً بالمقابل في العملية النقدية بعيداً عن قولبة النص الأدبي ضمن إطار نقدي صارم(17).

وبظهور "التفكيكية" التي جاء بها "جاك دريدا" في كتاباته المبكرة سنة 1967 المطروحة في كتابه "علم اللغة العام" 1913. تم دحض وحدة النص وإنغلاقيته المزعومة إذ كان يبحث في تلك الكتابات عن العوالم المختبئة في النص أو المسكوت عنها متجاوزاً الدور الوصفي الشكلي للبنيوية حيال النصية المطروحة. إذ أبدل بهذا الدور التفكيكي المرتبط باستجواب النصوص وتقويض سلطة المعنى الجامد وفتح الأفق للقراءة الحرّة المتشظية مع تشظي المعاني ذلك التشظي الذي يرى أنه السبب في إستحالة الوصول إلى تحليل نهائي للنص مما جعله يطرح مقولته المشهورة (لا شيء خارج النص) التي يعدها الناقد الأميركي "ليتش" البرتوكول للنقد الثقافي الما بعد بنيوي(18).

تكمن وظيفة "النقد الثقافي" في كونه يُشرَّح العمل أو الخطاب؛ معلّلا ديمومته وذيوعه من خلال الوقوف على المعاني الباطنية والدلالات الكامنة خلف الألفاظ المباشرة لذلك تُعد القراءة الثقافية أكثر إنصافاً للعملية الإبداعية في الكشف عن المطمور خلف السطور ومحاولة لانتزاع الحق لمن همشهم الواقع الثقافي بصورتيه : (الإبداعية والنقدية). إن استنطاق النص يعين على فهم المحيط الإجتماعي والثقافي المطروح , فيتعمّق فيه ليحكي لنا خصوصيات أراد النص بثها في سطوره في حين التعاطي مع الصورة المحددة مسبقاً أو الجاهزية الصرفة لم تعد تؤتِي أُكلها في ظل التحركات الثقافية المتجددة في الوعي الإنساني عامة, فمخرجات النص في هذه القراءة تختلف اختلافاً واضحاً عن مخرجات القراءة اللغوية وحتى الأدبية » فضلاً عن إهتمامها باللغة وجمالياتها تُعلي من شأن النص نفسه ومكوناته إذ أصبح النسق الثقافي المختبئ خلف السطور هو الظفر الحقيقي للناقد الثقافي, يحدد من خلاله الصورة المشكلة لوعي الفرد داخل مجتمعه وطبيعة القوانين المحتكم إليها ذلك المجتمع ومدى تأثيرها على الوعي الجمعي المشترك. وإذا كان "ليتش" هو أوَّل من حدد مصطلح النقد الثقافي في الغرب, فإنّ "الغذّامي" يعد أوَّل من عرّبه وطبقه على الخطاب الأدبي العربي. إذ حدد مفهوم النقد الثقافي بـ ((فرع من فروع النقد النصوصي العام ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية مَعْنِيٌ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه وما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء من حيث دور كل منهما في حساب المستهلك

الثقافي الجمعي وهو لذا مَعْنِيٌ بكشف لا الجمالي, كما هو شأن النقد الأدبي, وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة (البلاغي/الجمالي), وكما أن لدينا نظريات في الجماليات, فإن المطلوب إيجاد نظريات في (القبحيات) لا بمعنى البحث عن جماليات القبح, مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه؛ وإنما المقصود بنظرية القبحيات هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي والحس النقدي))(19). يقارب عبد الله الغذامي بين مفهوم (نظرية النقد الثقافي) ومفهوم (علم العلل) عند أهل الحديث ؛ لتشابه الغرض بين العلمين, فيقول: ((هو إذن نوع من علم العلل كما عند أهل مصطلح الحديث, وهو عندهم العلم الذي يبحث في عيوب الخطاب ويكشف عن سقطات في المتن أوفي السند, مما يجعله ممارسة نقدية متطورة ودقيقة وصارمة. ولا شك أن البحث في علل الخطاب يتطلب منهجاً قادراً على تشريح النصوص, وإستخراج الأنساق المضمرة, ورصد حركتها. وكما هي الدلالة اللغوية المزدوجة لكلمة (جميل) التي تعنى الشحم مثلما تعنى (الجمال) فإن في الثقافة أيضاً جمالاً من تحته شحم, وكما أن الشحم لذيذ وجذاب إلا أنه ضار وفتاك بالصحة البدنية, وكأنما لذته هي الواسطة والقناع لمضاره, وكذا هي الجماليات البلاغية تضمر أضرارها وقبحياتها, والحاجة إلى كشف ذلك تصبح هماً نقدياً مشروعاً وضرورياً))(20). إن النقد الثقافي هو مشروع في نقد الأنساق وهذا تحول جذري ونوعي يفترق فيه النقد الثقافي عن النقد الأدبي و بما أن الأخير معني بنقد النصوص وهو بحث في جماليات اللغة وتوظيف المجاز للكشف عن تلك الجماليات. فالمجاز الكلي هو المفهوم البديل عن المجاز البلاغي وفي المجاز الكلي تنشا الجملة الثقافية وتنشأ الدلالة النسقية والجملة الثقافية هي رديف مصطلحي للجملتين النحوية والأدبية والفرق بين الجملة الثقافية وهاتين الجملتين يماثل - بل يفوق - الفرق بين الجملة الأدبية والجملة النحوية وإن كانت النظرية البلاغية والنظريات النقدية قد ميزت تمييزاً كبيراً بين الجملة النحوية والجملة الأدبية وبين المعنى والدلالة وبين الدلالة الصريحة والدلالة الضمنية؛ فإن النقد الثقافي يميز بين ذلك كله وبين الجملة الثقافية ومعها الدلالة النسقية ومفهوم المجاز الكلي كتطور نظري ومفاهيمي بإتجاه نقد الأنساق لا نقد النصوص, وبإتجاه التأسيس لوعي نظري ونقدي مختلف نوعياً وإجرائياً فالنقد الثقافي عند الغذامي نظرية نقدية/ألسنية الأدوات ومعرفية القيمة وثقافية المضمون وهي نقد للأنساق آخذة بالمجاز الكلي والتورية الثقافية والنسق المضمر والدلالة النسقية. ونقول إنه بديل عن النقد الأدبي بعد أن فقد هذا النقد وظيفته, حينما بلغ حد التشبع من جهة ولم يعد قادراً على كشف الأنساق, وقد كان همه منصباً على جماليات النصوص وليس على ما وراء ذلك من أنساق مضمرة(21). تبنى نظرية النقد الثقافي عند الغذامي على نظرية (النسق المضمر), ويعرفه بقوله: ((هو مضمر نسقي ثقافي لم يكتبه كاتب فرد, ولكنه وجد عبر عمليات من التراكم والتواتر حتى صار عنصراً نسقياً يتلبس بالخطاب ورعية الخطاب من مؤلفين وقراء))(22). إذ أضاف عنصراً سابعاً إلى عناصر الانموذج اللغوي عند ياكبسون (المرسل, المرسل إليه, الرسالة, السياق, الشفرة, أداة الاتصال) والتي جعل وظائفها على التوالي: (وجدانية ذاتية وإخبارية نفعية وجمالية شاعرية ومرجعية ومعجميه وتنبيهية) , ليكون العنصر السابع هو (النسق), فوظيفة الخطاب في هذه الحالة (وظيفة نسقية) وهو نسق ثقافي وتاريخي يتكون عبر البنية الثقافية والحضارية ويتقن الإختفاء من تحت عباءة النصوص ويكون له دور سحري في توجيه عقلية الثقافة وذائقتها ورسم سيرتها الذهنية والجمالية وبذلك يجعل " النسق" مقابلاً "للدال" في النقد الأدبي؛ ليكون منطلقاً نقدياً وأساساً منهجياً(23). وبما أن الخطاب الأدبي حادثة ثقافية فالنسق يعدّ إفرازاً ثقافياً يستهلكه الجمهور وتكون الجماليات البلاغية قناعاً تمُرَ عبره الأنساق بأمان ويشترط الغذامي في الخطاب المنقود ثقافياً أن يكون جماهيريًا وأن يمتلك نسقين :

أحدهما (ظاهر) والآخر (مضمر) وأن يكون النسقان في حالة صراع كما يشترط فيه أن يحظى بمقروئية عريضة مما ينّم عن كونه خطاباً جمالياً(24). جعل الغذامي للنسق دلالة سمّاها "الدلالة النسقية" تعمل في مقابل الدلالة الضمنية التي يقوم عليها النقد الأدبي الجمالي وعرفها بقوله: ((علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكون عنصراً ثقافياً أخذ بالتشكل التدريجي إلى أن أصبح عنصراً فاعلاً))(25). وتطبيقاً لفكرة الأنساق التي أسس لها النقد الثقافي» نجد أنه لم يعد من المجدي ثقافياً أن نقول في رصد جماليات الصورة مثلا إنها تشبيه أو مجاز أو إستعارة.. دون أن نبيّن الأنساق الموجودة خلف هذه الجماليات الفنية للصورة بوصف النص مجموعة من العلامات الثقافية بعد أن صار مكوناً من جملة نحوية وبلاغية مضافاً إليها جملة ثقافية. وإذا كانت الجملة النحوية ذات وظيفة نفعية تواصلية والجملة البلاغية ذات وظيفة أدبية جمالية تضاف للخطاب الأدبي, فإن الجملة الثقافية تشير إلى المخزون الفكري الذي يحمله الخطاب, أيّاً كان هذا الخطاب وهذا المخزون لا يتعلق بإرادة المؤلف أو المرسل, ذلك أن هناك مؤلفاً مضمراً يختبئ في لا شعوره, يملي عليه القواعد الأساسية للنسق الفكري المضمر. عمد الغذامي إلى تقريب فكرة "النسق" عبر تطبيقها على المتنبي, حين بدأ الحديث عنه بسؤال: ((المتنبي مبدعٌ عظيم أم شحاذ عظيم أم هو الاثنان معاً ...؟)) (26), وفي إطار هذا التساؤل جعل المتنبي ذا نسقين, الأول: (نسق ظاهر) يتمثل في فحولته الشعرية ومقدرته القولية في الأدب العربي, أمّا الثاني (نسق مضمر) يتمثل في كونه شحَاذاً منافقاً, وهذا النسق المضمر لعبت البلاغة بجمالياتها المختلفة على إخفائه, حتى عُدَّ مسلّمة لدى (قراء المتنبي) في جعله أشعر العرب, والدلالة النسقية هذه يتم إكتشافها عبر شعر المتنبي فضلاً عن ما كتب عنه وعن سيرته وعصره. إلى غير ذلك ممّا حِيكَ ثقافياً حوله وذلك لتصحيح المسار الثقافي. وبذلك يظهر لنا أن النقد الثقافي لا يبقى مشروطاً بالظاهرة الجمالية وحدها بل بنسق مضمر يستعين بهذه الوسائل الجمالية لتمرير عيوبه وأيديولوجيته تحت الغطاء الجمالي, لذا فإننا في الوقت الذي نكشف فيه عن مستويات الجمال الصوري في خطاب ما نعمد إلى إبراز قبحيات هذهِ الجماليات من الناحية الثقافية.

الهوامش

1-الكلمات والمفاتيح, رايموند ويليامز ت: نعيمات عثمان, المجلس الأعلى للثقافة, ط1 , 2005 , ص 236 .

2-موسوعة لالاند الفلسفية, منشورات عويدات, بيروت, باريس, مج1, 1996 , ص 621 .

3-ينظر: النقد الثقافي, عبد الله الغذامي, المركز الثقافي العربي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية) الدار البيضاء, ط2 , 2001 , ص 34 .

4-ينظر: العمى والبصيرة, بول دي مان, مقالات في بلاغة النقد المعاصر, ص7-9 .

5-فتنة المتخيل, محمد لطفي اليوسفي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت, 2002 , ص15 .

6-النقد الثقافي, ص87 – 88 .

7-نقد ثقافي أم نقد أدبي, عبد الله الغذامي وعبد النبي احطيف, دار الفكر المعاصر, دمشق, ط1 , 2004 , ص45 .

8-ينظر: مشكلة الحرية الميتافيزيقية, برديائيف ن. أ , مجلة الطريق الفلسفية, باريس, 1928 ع 9 , نُشرت في مجلة المعرفة السورية, ع1 , 1997 , ص42 .

9-ينظر: المعجم الفلسفي, مجمع اللغة العربية, الهيئة العامة لشؤون المطابع الأمي.

10-رية, 1983 م , ص 58 .

11-الدراسات الثقافية, زيودين سارادار وبورين فالون, ترجمة : وفاء عبد القادر, القاهرة, 2003 م , 8 .
12-النقد الثقافي, قراءة في الأنساق الثقافية العربية, ط3 , عبد الله الغذامي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, 2005 م , ص 74 .
13-ينظر: مفهوم الثقافة في العلوم الإجتماعية, دوني كوش, ترجمة : قاسم المقداد, اتحاد الكتاب العرب, دمشق, 2002 م , ص 22 .
14-ينظر: النقد الثقافي, قضايا وقراءات, عبد الفتاح العقيلي, بحث منشور على صفحة الأنترنيت.
15-تنظر: الكلمات المفاتيح, رايموند ويليامز, ترجمة : نعيمان عثمان, ط1, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, 2005م , ص 236 .
16- ينظر: التلقي والسياقات الثقافية, عبد الله ابراهيم, دار الكتاب الجديد, بيروت – لبنان, 2000م , ص 13 .
17-ينظر: النقد الثقافي, قضايا وقراءات, ص 22 .
18- ينظر: الخروج من التيه, دراسة في سلطة النص, عبد العزيز حمودة, سلسلة عالم المعرفة, الكويت, 2003م , ص 88 .
19- ينظر: النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينات الى الثمانينات, ترجمة : محمد يحيى, ط1, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, 2000م , ص 104 .
20- النقد الثقافي, قراءة في الأنساق الثقافية, ص 83-84 .
21-م.ن, ص 84 .
22- ينظر: م .ن , ص 55 - 89 .
23- م. ن , ص 71 .
24-ينظر: م.ن, ص 64 .
25-ينظر: م.ن, ص 77 – 78 .
26-م.ن, ص 73 .

المصادر والمراجع

1-التلقي والسياقات الثقافية, عبد الله, ابراهيم, دار الكتاب الجديد, بيروت – لبنان, 2000م .
2-الخروج من التيه, دراسة في سلطة النص, عبد العزيز حمودة, سلسلة عالم المعرفة, الكويت, 2003م .
3-الدراسات الثقافية, زيودين سارادار وبورين فالون, ترجمة : وفاء عبد القادر, القاهرة, 2003م.
4-العمى والبصيرة, بول دي مان, مقالات في بلاغة النقد المعاصر, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, 1983م.
5-فتنة المتخيل, محمد لطفي اليوسفي, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت, 2002م.
6-الكلمات والمفاتيح, رايموند ويليامز ت: نعيمات عثمان, المجلس الأعلى للثقافة, ط1 , 2005م .
7-مشكلة الحرية والميتافيزيقية, بروبائيف ن. أ , مجلة الطريق الفلسفية, باريس, 1928م, عدد9 , نُشرت في مجلة المعرفة السورية, عدد 1 , 1997م .
8-المعجم الفلسفي, مجمع اللغة العربية بالقاهرة, الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية, 1983م.
9-موسوعة لالاند الفلسفية, منشورات عويدات, بيروت, باريس مج1 , 1996م .

10-النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينات الى الثمانينات, ترجمة : محمد يحيى, ط1, المجلس الأعلى للثقافة, القاهرة, 2000م .
11-النقد الثقافي, عبد الله الغذامي, المركز الثقافي العربي (قراءة في الأنساق الثقافية العربية) الدار البيضاء, ط2 , 2001م .
12-النقد الثقافي, قراءة في الأنساق الثقافية العربية, ط3 , عبد الله الغذامي, المركز الثقافي العربي, الدار البيضاء, 2005 م .
13-النقد الثقافي, قضايا وقراءات, عبد الفتاح العقيلي, بحث منشور على صفحة الأنترنيت.
14-نقد ثقافي أم نقد أدبي, عبد الله الغذامي وعبد النبي أصطيف, دار الفكر المعاصر, دمشق, ط1 , 2004م.

Cultural text and systemic tricks
(The systemic implied from the ugly to the aesthetic)

Dr. Rudhab Hafid Hameed
Ministry of Education: Vocational Education / Russafa owlla Zayoona / Secondary Manufacturing School
r.novel34@yahoo.com

Abstract:

In the midst of the systematic system of the text, the cultural function performs a formal dimension by re-receiving the aesthetic concept and programming that taste mechanism. Hence the research worked on the historical concept of literature that carries the aesthetics of the speech, it a spires the count of literate combining the structure of feelings and feelings with the aesthetic form of language, and what is rooted in the cultured literary a warness in terms of context in the system of aesthetic forms.

There must be a new historical study that is a war of the coherence of a culture that is muzzled and killed in the corridors of aesthetic system.

The Gothami converged between the theory of cultured criticism and the concept of causes, then we conclude that culture criticism does not remains conditional on aesthetic alone, but rather in an implicit format that uses aesthetic means to pass its faults and ideology.

Keywords: Cultural Text, Systemic Resourcefulness, Aesthetics.